

الدرس الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

قال المصنف رحمه الله تعالى :

مقدمة

((تعرف العبد بما خلق له وبأول ما فرض الله تعالى عليه وبما أخذ الله عليه به الميثاق في ظهر أبيه آدم وبما هو صائر إليه))

إِعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَمْ يَتْرُكِ الْخَلْقَ سُدىً وَهَمَلًا
بَلْ خَلَقَ الْخُلُقَ: لِيَعْبُدُوهُ وَبِالْإِلَهِيَّةِ يُفَرِّدُوهُ

الشرح :

هذه المقدمة جعلها رحمه الله تعالى بين يدي هذه المنظومة الطيبة النافعة تنبيهاً إلى أهمية هذا الأمر وعظم شأنه ، وأنه الأمر الذي خلق الخلق لأجله ، وأوجدوا لتحقيقه ، ومثل هذه المقدمات التمهيدية مهمة للغاية ؛ لأنه من خلالها يتبين لطالب العلم أهمية هذا الموضوع وجلالة شأنه ، فإذا أدرك أهميته زادت عنايته به وزاد اهتمامه به ، فبدأ - رحمه الله عز وجل - بهذه المقدمة ، منبهاً من خلالها إلى أهمية هذا الموضوع الجليل ؛ موضوع التوحيد الذي هو مقصود هذا النظم والمراد بهذا النظم ، فجعل بين يديه مقدمة يبين بها أهمية التوحيد ، وأنه أول ما فرض الله - تبارك وتعالى - على العبد ، فذكر أهميته من جهة أن العبد خلق لأجله قال تعالى { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } ويبين أهميته من جهة أنه أول ما فرض الله - سبحانه وتعالى - على العباد ؛ لأن التوحيد هو أفرض الفرائض وأوجب الواجبات وأعظم الأوامر ، فأول ما تأمر به الرسل أمهم هو توحيد الله عز وجل ، وأول الأوامر في القرآن الأمر بالتوحيد ، قال الله - عز وجل - في أول أمرٍ في كتاب الله { يا أيها الناس اعبدوا ربكم } وأول شيء نهي الله عنه في القرآن هو الشرك ضد التوحيد قال الله - تعالى - { فلا تجعلوا لله أندادا وانتم تعلمون } وكل الآيات التي في القرآن المشتملة على الأوامر والنواهي تُبدأ بالأمر بالتوحيد ، والنهي عن الشرك ، كقوله - تعالى - { وقضى - ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين

{إحساناً} والآيات بعدها وقول الله -عز وجل- " {ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً} وقوله تعالى {قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً} وغيرها من الآيات في هذا المعنى فالتوحيد هو أعظم الأوامر ، أعظم شيء أمر الله به عباده هو التوحيد ، وأعظم شيء نهى الله -تبارك وتعالى- عنه عباده هو ضده الشرك بالله -سبحانه وتعالى- ، فالتوحيد هو أعظم الأوامر وهو مقصود الخليقة خلق الجن والإنس لأجله {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} وأمر ثالث قال : (وبما أخذ الله عليه به الميثاق في ظهر أبيه آدم) (وبما أخذ الله عليه) أي على العبد (به) أي التوحيد (الميثاق في ظهر أبيه آدم) وهذا يشير إلى أمر سيأتي تقريره عنده -رحمه الله- وذكر الأدلة عليه في النظم وأن الله -عز وجل- أخرج في عالم الذر ذرية آدم من ظهر أبيهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ، وهذا مما يبين عظم شأن التوحيد ، أن الله -عز وجل- أخرج ذرية آدم من ظهر أبيهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم {قالوا بلى شهدنا} " كما سيأتي عند الناظم -رحمه الله تعالى- هذا يبين لنا أن التوحيد هو أعظم الأمور وأجلها قال (وبما هو صائرٌ إليه) أيضاً التوحيد أمره مصيري ، من كان موحداً فمصيره إلى الجنة أبد الآباد ، ومن مات -والعياذ بالله- مشركاً فمصيره إلى النار مخلداً فيها أبد الآباد ، لا يقضى -عليهم فيموت ولا يخفف عنهم من عذابها ، فأمر التوحيد وضده أمرٌ مصيري ؛ إما جنة عرضها كعرض السماوات والأرض يخلد فيها الموحد أبد الآباد ، وإما نار فيها من العذاب الشديد الفظيع ويخلد فيها أبد الآباد ، ولا يقضى على المشرك في النار فيموت ، ولا يخفف على المشرك من عذابها ، ولا يعاد إلى الدنيا مرة ثانية ليصحح العمل ؛ بل يبقى في النار أبد الآباد ، فهذا يبين لنا عظم شأن التوحيد وما يترتب عليه من الشار والآثار العظيمة للموحد في الدنيا والآخرة ، وأيضاً ما يترتب على ضده وهو الشرك بالله من الأخطار والأضرار العظيمة على المشرك في الدنيا والآخرة ، هذه مقدمة مهمة بين يدي هذا الكتاب أو بين يدي هذا النظم ، قال -رحمه الله- :

إِغْلَمَ بِأَنَّ اللَّهَ جَلٌّ وَعَلَا لَمْ يَتْرُكِ الْخَلْقَ سُدىً وَهَمَلَا

وكلمة (اعلم) يؤتى بها للتنبيه ، لاسيما على الأمور العظيمة المهمة الجليلة ، وتأتي في القرآن كثيراً ، تنبيهاً إلى الأمور المهمة التي تذكر بعد قوله اعلم ، ومن ذلك قوله -تعالى- {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك} والآيات في هذا المعنى كثيرة ، التي فيها الأمر بالعلم بالله وألوهيته وأسمائه وصفاته ، تقارب

الثلاثين آية في كتاب الله - جل وعلا - ، فاعلم هذه يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة المهمة، تنبيهاً للسامع وشداً لانتباهه ، ولهذا بدأ - رحمه الله - هنا بقوله :

إِعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَمْ يَتْرِكِ الْخَلْقَ سُدىً وَهَمَلًا

(اعلم) بأن الله - جل وعلا - خالق هذه الخليقة ، وموجد الناس ، وباري البرية - سبحانه وتعالى - ، لم يترك الخلق سداً وهملًا ، قال تعالى {أيحسب الإنسان أن يترك سدى} : فالله - عز وجل - منزّه عن ذلك ، لم يخلق الخلق عبثاً أو باطلاً تنزه ربنا وتقدس عن ذلك ، لهذا يقول أولو الألباب { ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك } أي ننزهك يا الله ، فالله ما خلق الخلق باطلاً ولا أوجدهم هملاً ولا يتركهم سداً : أي لا يؤمرون ولا ينهون ، بل هو - سبحانه وتعالى - خلق الخلق ليأمرهم وينهاهم ، وأعظم شيء أمرهم به توحيدهم ، وأعظم شيء نهاهم عنه الإشراك به قال :-

إِعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَمْ يَتْرِكِ الْخَلْقَ سُدىً وَهَمَلًا

أي لم يتركهم دون أن يأمرهم أو ينهاهم ، بل خلقهم - سبحانه - ليأمرهم وينهاهم ، ولذلك أرسل رسله وأنزل كتبه بالأوامر والنواهي ، قال ((بَلْ خَلَقَ الْخُلُقَ : لِيَعْبُدُوهُ)) لم يخلق الخلق سدىً وهملًا ، بل خلقهم ليعبدوه قال : ((وَبِالْإِلَهِيَّةِ يُفَرِّدُوهُ)) هذا الذي لأجله خلق الخلق - سبحانه وتعالى - ، خلقهم ليعبدوه : أي ليخصوه وحده بالعبادة ، ويفردوه - تبارك وتعالى - بالطاعة كما قال - عز وجل - { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } جاء عن ابن عباس وغيره أن كل أمر في القرآن بالعبادة أمرٌ بالتوحيد فقله {إلا ليعبدون} أي إلا ليوحدون ، أي إلا ليفردوني وحدي بالعبادة ، فهذا الذي خلق الخلق لأجله قال :

بَلْ خَلَقَ الْخُلُقَ : لِيَعْبُدُوهُ وَبِالْإِلَهِيَّةِ يُفَرِّدُوهُ

ذكر هنا أمرين مستفادين من اسمه - تبارك وتعالى - (الله) فالله هذا الاسم العظيم يدل على الألوهية التي هي صفة الجلال والكمال والعظمة التي بها استحق أن يعبد ، ويخضع له - تبارك وتعالى - ويدل هذا الاسم على العبودية التي هي صفة العبد وأعماله التي يقتضيها إيمانه بأن الله - سبحانه وتعالى - هو الإله ، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - [الله ذو الألوهية والعبودية على خلق أجمعين] ، الألوهية صفة الله ، وهي صفات الجلال والكمال والعظمة التي بها استحق أن يعبد ويخضع له - تبارك وتعالى - ويدل ، وأن يخص وحده - تبارك وتعالى - بالعبادة ، والعبودية التي هي أعمال العباد التي يقتضيها إيمانهم بألوهية الله ، ولهذا

توحيد الألوهية يقال له تارة توحيد الألوهية ؛ باعتبار استحقاق الله - عز وجل - بذلك واختصاصه - سبحانه - بذلك ، فهو الإله الحق ، والمعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، ويقال له توحيد العبادة وتوحيد الإرادة وتوحيد القصد ، وتوحيد الطلب ، التوحيد العملي إلى غير ذلك من الأسماء باعتبار أفعال المكلفين التي يقتضيها إيمانهم بالله - تبارك وتعالى - الإله وأنه - سبحانه - المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، فقله - رحمه الله - في هذا البيت الجميل :

بَلْ خَلَقَ الْخُلُقَ: لِيَعْبُدُوهُ وَبِالْإِلَهِيَّةِ يُفَرِّدُوهُ
إشارة إلى هذين الأمرين .

قال رحمه الله :

أَخْرَجَ فِيمَا قَدْ مَضَى مِنْ ظَهْرِ آدَمَ: ذُرِّيَّتَهُ ((كَالذَّرِّ))
وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ لَا رَبَّ مَعْبُودٍ بِحَقِّ غَيْرِهِ

ذكر هنا في بيان أهمية التوحيد وعظيم مكانته أن الله - عز وجل -

أَخْرَجَ فِيمَا قَدْ مَضَى مِنْ ظَهْرِ آدَمَ: ذُرِّيَّتَهُ ((كَالذَّرِّ))
وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ لَا رَبَّ مَعْبُودٍ بِحَقِّ غَيْرِهِ

ذكر هنا - رحمه الله - ما دل عليه قول الله - سبحانه وتعالى - في سورة الأعراف { وإذ أخذ ربك من بني آدم ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون }

وهذه الآية معناها كما قرره جماهير السلف وأهل التفسير أن الله - تبارك وتعالى - أخرج ذرية آدم بعد خلقه لآدم - سبحانه وتعالى - وإيجاده له ، أخرج ذريته من ظهره جميع للذرية ، اختلف أهل العلم أين كان هذا الإخراج ، منهم من قال كما جاء عن ابن عباس في صعيد عرفة وذكر أماكن أخرى الله أعلم ، فالله - جل

وعلا- أخرج ذرية آدم ، أخرجهم كلهم من ظهره ، وأشهدهم على أنفسهم أأست بربكم ؟ أي المستحق لئن أعبد وحدي وأن أخص بالطاعة وحدي وأن تفردوني بالعبادة ؟ {قالوا بلى شهدنا} الشهادة هنا على التوحيد شهدوا كلهم وأقروا بذلك لله- تبارك وتعالى- أنه الرب المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، وهذا الإقرار إقرار بتوحيد العبادة وأنه لا معبود بحق إلا الله -سبحانه وتعالى- كما يوضح ذلك ويدل عليه تمام السياق {أو تقولوا إنما أشرك آبائنا} فإقرارهم هنا بإقرارهم بأنه- تبارك وتعالى- الرب المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، وأنه لا يصرف شيء من العبادة إلا له ، أقروا كلهم بذلك {وقالوا شهدنا} وهذا ميثاق أخذته الله -سبحانه وتعالى- وعهداً أخذته الله -جل وعلا- على الناس على ذرية آدم أجمعين عندما أخرجهم من ظهر أبيهم آدم ، وقد يقول قائل هنا وما يدري الناس عن هذا العهد وهذا الميثاق ؟ والجواب : يدريهم عن هذا العهد والميثاق أمران : (١) الأول : أن الله فطرهم جميعاً على التوحيد ، جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه أنه قال : [خلقت عبادي حنفاء فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم] ، وقال -عليه الصلاة والسلام- كما في حديث أبي هريرة [كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه]

(٢) والامر الثاني : الرسل ، رسل الله ؛ لأن الرسل بعثهم الله -سبحانه وتعالى- ليذكروهم بهذا العهد والميثاق ، أرسل الله -عز وجل- رسله ليذكروا الناس بهذا العهد والميثاق وسيأتي تقرير هذا المعنى عند الناظم -رحمه الله-.

وفي معنى الآية تقرير أهل العلم لها جاء أحاديث عديدة ساقها المصنف -رحمه الله- بتوسع وتقص في كتابه معارج القبول .

وبهذه المناسبة أحب أن أنبه تنبيهاً وأؤكد عليه ألا وهو أن هذا الدرس وهذه المذاكرة لهذه المنظومة ؛ اعتبروها كالتمهيد والتوطئة لقراءة كتابه الحافل وسفره الطيب معارج القبول فهذا الدرس كالتوطئة والتمهيد لقراءة الكتاب ، لهذا يحسن في هذه القراءة أن تكون أولاً بأول ، عندما تنتهي من درس مباشرة تحاول أن تقرأ ما قرره -رحمه الله- حول الأبيات التي شرحت إن تمكنت من ذلك فيها ، وإلا بعد انتهاء الدورة وفي فرصة قريبة جداً تقرأ كتاب معارج القبول للشيخ -رحمه الله- وهذه المذاكرة أشبه ما تكون بالتمهيد والتوطئة بين يدي قراءة كتاب الشيخ -رحمه الله- معارج القبول .

(أَخْرَجَ) أي الله - سبحانه وتعالى - (فِيمَا قَدْ مَضَى مِنْ ظَهْرِ) أي في الزمان الذي مضى من ظهر آدم ، (أَخْرَجَ) أي الله ، في الزمان الذي قد مضى - عندما خلق آدم - سبحانه وتعالى - أخرج من ظهره ذريته ، أي كلهم أجمعين أخرجهم في عالم الذر ، ولهذا قال - رحمه الله - أخرج ذريته كالذر: أي كهيئة الذر أخرجهم ، ونثرهم في مكان واحد وأشهدهم - تبارك وتعالى - على أنفسهم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بلى ، جاء في الصحيحين من أنس بن مالك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال [يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتلياً به ؟ فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي] أخرجاه في الصحيحين ، وساق المصنف - رحمه الله - أحاديث عديدة جداً في هذا المعنى يمكن مطالعتها في كتبه معارج القبول ، قال (وأخذ العهد عليهم أنه) أي أخذ الله - سبحانه وتعالى - عليهم أي : على هؤلاء الذراري أي الذين أخرجهم (أنه) أي الله (لا رب معبود بحق غيره) هذا يبين لكم ما جاء في الآية { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ } أي الرب الذي يخص بالعبادة وتصرف العبادة له وحده ، ولهذا قال :

أخذ العهد عليهم أنه لا رب بحق غيره .

لا معبود بحقٍ سواه ، وهذا هو معنى لا إله إلا الله .

قال رحمه الله :

وبعد هذا رسله قد أرسلهم وبالحق الكتاب أنزلا

لكي بذأ العهد يذكروهم وينذروهم ويبشروهم

كي لا يكون حجة للناس بل لله أعلى حجة عز وجل

فمن يصدقهم بلا شقاق فقد وفي بذلك الميثاق

وذاك ناجٍ من عذاب النار وذلك الوارث عقبى الدار

ومن بهم وبالكتاب كذبا ولا الإعراض عنه والإبأ

فذاك ناقض كلا العهدين مستوجبٌ للخزي في الدارين

الشرح :

قال - رحمه الله - (وبعد هذا) أي بعد هذا الميثاق الذي أشار إليه في البيتين المتقدمين ، (رسله قد أرسل) (وبعد هذا) أي بعد أن أخذ الميثاق وأخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم بعد هذا (رسله قد أرسل) أي أرسل - تبارك وتعالى - رسله الكرم - عليهم صلوات الله وسلامه - (لهم) أي لهؤلاء الذرية ، أرسل الله - عز وجل - رسله تترأ رسول من بعد رسول حتى ختم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - قال (وبالحق الكتاب أنزلا) أرسل الكتب لهم (وبالحق الكتاب أنزلا) أي على الرسل ، فأنزل الكتاب وأل في الكتاب للاستغراق أو الجنس تشمل جميع كتب الله ، فأنزل الله - تبارك وتعالى - كتبه أي على رسله الكرام ، فبعد الميثاق أرسل الرسل - جل وعلا - وأنزل على الرسل كتبه لأجل لماذا ؟ قال (لكي هذا العهد يذكروهم) فالله - جل وعلا - أرسل الرسل لغاية ولغرض من ذلكم أن يذكروا الناس بالعهد الذي أخذ عليهم في عالم الذر العهد الأول ، يذكروهم به وقول الناظم هنا (لكي هذا العهد يذكروهم) فيه جواب لسؤال من يقول وما يدري الناس عن هذا العهد ؟ يدرهم أن الرسل ذكروهم بهذا العهد وأخبرهم بذلك وهم صادقون مصدقون (لكي هذا العهد) أي العهد الذي أخذ الله - عز وجل - الناس والميثاق الذي أخذه عليهم (يذكروهم) أي الرسل يذكروا الناس بذلك ، وأيضاً (وينذروهم ويشرحوهم) كما قال - سبحانه وتعالى - {رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} فأرسل الرسل ليدذكروا الناس بذلك العهد والميثاق وليكونوا مبشرين ومنذرين ، مبشرين بالتوحيد وبالجنة لمن أطاع الله - عز وجل - ووحدته ومنذرين من النار ومن الشرك بالله - تبارك وتعالى - وأن عاقبة المشركين النار والخزي في الدارين .

(كي لا يكون حجة للناس بل لله أعلى حجة عز وجل) أي إرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يكون للناس حجة وهذا واضح في الآية الكريمة {رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} أي بعد أن أرسل - تبارك وتعالى - عليهم وإليهم رسله ، ولهذا من يدخل النار يوجه إليه هذا السؤال هل قامت عليك هذه الحجة ؟ في قوله تعالى {وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم} وفي سورة الملك {وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى { فلا يكون لأحد حجة بعد الرسل ، ولهذا قال (كي لا يكون حجة للناس بل لله أعلى حجة عز وجل) وهذا فيه إشارة إلى قوله {قل فالله الحجة البالغة} فالله -

تبارك وتعالى - له أعلى حجة ، (الله أعلى حجة عز وجل) ثم ذكر أن الناس على قسمين حول هذا الميثاق ، حول هذا العهد ولزومه أنهم على قسمين قال مبيناً القسم الأول :

فمن يصدقهم بلا شقاق فقد وفى بذلك الميثاق

(فمن يصدقهم) أي الرسل (بلا شقاق) أي بلا امتناع ولا معاندة ولا رد ولا رفض (فقد وفى بذلك الميثاق) من كان مصداقاً للرسل مؤمناً بما جاءوا به متبعاً لهم مطيعاً لأوامرهم منتهياً عما ينهونه عنه ، من كان كذلك فقد وفى بذلك الميثاق ، وهذا بيان لحال أهل الإيمان الذين أكرمهم الله - سبحانه وتعالى - ومن عليهم بتصديق المرسلين والإيمان بهم ، (فقد وفى بذلك الميثاق) ما ثوابه ؟ قال (وذاك ناجٍ من عذاب النار وذلك الوارث عقبى الدار) فذكر القسم الأول وذكر ثوابهم عند الله ، قال ثواب هؤلاء الذين صدّقوا المرسلين ووفوا بذلك الميثاق والتزموه عاقبتهم النجاة من عذاب النار ، ينجيهم الله - سبحانه وتعالى - من عذاب النار يوم القيامة ، وأيضاً يورثهم عقبى الدار: أي الجنة ، ولهذا لما ذكر - سبحانه وتعالى - سوق أهل الجنة للجنة زمراً في آخر سورة الزمر { وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين } فذكر - سبحانه وتعالى - أنهم ورثوا عقبى الدار أي ورثوا الجنة ، وهذا الورث للجنة هو ثواب الوفاء بذلك الميثاق ، والطاعة للمرسلين والتوحيد لرب العالمين - سبحانه وتعالى - هذا القسم الأول من الناس ، القسم الثاني قال :

ومن بهم وبالكتاب كذبا ولا زم الإعراض عنه والإبأ

فذاك ناقض كلا العهدين مستوجب للخزي في الدارين

هذا القسم الثاني من هم ؟ قال (من بهم) أي بالرسول (وبالكتاب) أي بالكتب (كذبا) أي كان مكذبا للمرسلين ومكذبا لكتب رب العالمين المنزلة على رسله - صلوات الله وسلامه عليهم - ، (ولازم الإعراض عنه والإبأ) أي كان ملازماً للإعراض معرضاً عن كتاب الله لا يقرؤه ولا يسمعه ولا يتدبره ، قال - عز وجل - { ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى } فهنا يقول (ولازم الإعراض عنه والإبأ) الإبأ هو الامتناع ، يمتنع عن قبول الحق { إلا إبليس أبى واستكبر } فمن لازم الإعراض والإبأ وكان مكذباً بكتب الله - عز وجل - وبرسله ، فهذا ناقض كلا العهدين ، ما العهدان ؟

(١) الميثاق الأول : الذي أشار إليه رحمه الله في البيتين الأولين أخذ الميثاق في عالم الذر .

٢) والعهد الثاني : يشير إلى بعث الرسل وإرسالهم ، فمن كذب بالكتاب ولازم الإعراض والابا .
 (فذاك ناقض كلا العهدين) العهد الأول للذي هو الميثاق ، والعهد الثاني هو إتباع المرسلين والإيمان بهم
 وبما جاءوا به ، وما عقوبة من كان كذلك ؟ قال : (مستوجب للخزي في الدارين) كما قال تعالى { وأتبعناهم
 في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين } فعقوبة من كان كذلك الخزي في الدارين أي في الدار
 الدنيا وفي الدار الآخرة أجازنا الله وإياكم ووقانا ووقاكم .

قال رحمه الله :

الفصل الأول

في كون التوحيد ينقسم إلى نوعين ، وبيان النوع الأول وهو توحيد المعرفة والإثبات .

أول واجب على العبيد معرفة الرحمن بالتوحيد
 إذ هو من كل الأوامر أعظم وهو نوعان أيا من يفهم
 إثبات ذات الرب جل وعلا أسماؤه الحسنی صفاته العلا

الشرح :

هذا الفصل عقده - رحمه الله - لبيان من خلاله أن التوحيد الذي خلق الخلق لأجله وأوجدوا لتحقيقه
 نوعان :

١- النوع الأول : توحيد المعرفة .

٢- النوع الثاني : والإثبات توحيد الإرادة والطلب .

يقال للأول التوحيد العلمي ، ويقال للثاني التوحيد العملي ، فالتوحيد نوعان علمي وعملي ، وإن شئت قل
 توحيد معرفة وإثبات ، وتوحيد إرادة وطلب ، فهذان التوحيدان هما الأمر الذي لأجله خلق الخلق -
 سبحانه وتعالى- ، ويدل على ذلك آيتان ، الأولى في آخر سورة الطلاق والثانية في أواخر سورة الذاريات ،
 آخر آية في الطلاق وهي قوله -تعالى- { الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر
 بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن قد أحاط بكل شيء علما } والآية الثانية في أواخر المذاريات {
 وما خلق الجن والإنس إلا ليعبدون } في الأولى قال خلق لأجل ماذا ؟ { لتعلموا } والثانية خلق { لتعبدوا }

{ فدللت الآيتان أن الله - سبحانه وتعالى - خلق الخلق لهذين التوحيدين التوحيد العلمي {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله { لماذا ؟ { لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً} والنوع الثاني في قوله {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} والتوحيد العلمي مستلزمٌ للعملي ، والتوحيد العملي متضمنٌ للعلمي ؛ أي أن من عبد الله مخلصاً له الدين عرف الله ؛ لأن عبادة الله بإخلاص الدين له فرعٌ عن معرفته - سبحانه - والتوحيد العلمي مستلزمٌ للتوحيد العملي أي يلزم من أقرب بأن الرب الخالق الرازق المتصف بصفات العلا هو الله أن يفرد - تبارك وتعالى - بالعبادة ، وأن يخصه وحده بالذل والخضوع ، إذن هذا الفصل عقده الناظم - رحمه الله تعالى وغفر له - ليبين أن التوحيد نوعان ؛ نوعٌ في المعرفة والإثبات ، ونوع يتعلق بالإرادة والطلب ، ثم ينبه - رحمه الله - أن هذا الفصل سيكون خاصاً بالنوع الأول الذي هو المعرفة والإثبات ، وسيأتي فصل قادم لبيان النوع الثاني وهو توحيد الإرادة والطلب ، قال رحمه الله - تعالى -

أول واجب على العبيد معرفة الرحمن بالتوحيد

هذا أول واجب على العبيد معرفة الرحمن بالتوحيد ، أول ما يجب على العبيد هذا الأمر الذي خلق الخلق لأجله وأوجدوا لتحقيقه ؛ أي التوحيد بنوعيه العلمي والعملي فهذا أول ما يجب ، أول ما يجب على العبيد أن يحققوا التوحيد بنوعيه العلمي والعملي قال :

أول واجب على العبيد معرفة الرحمن بالتوحيد

إذ هو من كل الأوامر أعظم وهو نوعان أيا من يفهم

قوله هنا (إذ) هذا حرف تعليل لكون التوحيد أول واجب يعقل الشيخ - رحمه الله - كون التوحيد أول واجب بقوله (إذ هو من كل الأوامر أعظم) فهو من كل الأوامر التي يأمر الله - تبارك وتعالى - عباده بها أعظم ، أي أنه أعظم شيء أمر الله - تبارك وتعالى - به ، كما أن ضده وهو الشرك أعظم شيء نهى الله عنه ، وقد أشرت فيما سبق إلى أن آيات الأوامر والنواهي في القرآن تُبدأ بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك ، فالتوحيد أعظم شيء أمر الله به ، وضده الذي هو الشرك ، أعظم شيء نهى الله - تبارك وتعالى - عنه ، إذن التوحيد أول شيء يجب على العبيد وإذا قيل لماذا هو أول واجب على العبيد يأتي الجواب في البيت الثاني لأنه أعظم شيء أمر الله به ، ثم وضح أن التوحيد نوعان قال (وهو نوعان) أي هذا التوحيد الذي هو أول

الواجبات وأوجب الواجبات وأعظم الأوامر وأجلها هو نوعان (أيا من يفهم) ما هما ؟ بدأ بالأول وسيكون هذا الفصل كله عن النوع الأول وهو المعرفة والإثبات ، قال :

إثبات ذات الرب جل وعلا أسمائه الحسنی صفاته العلا

وهذا يسميه أهل العلم كما ذكر الشيخ في العنوان توحيد المعرفة والإثبات ، ويسمونه التوحيد العلمي لماذا ؟ لأن المطلوب من العبيد في هذا النوع من التوحيد هو المعرفة والإثبات والعلم هذا هو المطلوب ، المطلوب من العباد أن يعلموا أن يعرفوا أن يثبتوا ، فهذا هو المطلوب منهم أن يقرروا بأن الرب الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله وحده لا شريك له ، الملك لهذا الكون وأن يقرروا بأسمائه الحسنی وصفاته العليا ، يثبتونها - تبارك وتعالى - له كما أثبتنا لنفسه وكما أثبتنا له رسوله - صلى الله عليه وسلم - (إثبات ذات الرب جل وعلا) أي إثبات وجود الرب سبحانه وأنه الخالق لهذه المخلوقات والموجد لهذه الكائنات والإقرار بذلك ، والملك لهذه المخلوقات السماوات والأرض ولجميع المخلوقات الإيمان بذلك ، والإيمان أيضاً بأسمائه الحسنی وصفاته العلا ، وبهذا يعلم أن توحيد المعرفة والإثبات أو ما يقال عنه التوحيد العلمي يدخل تحته توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، والنوع الآخر الذي سيأتي وهو توحيد الإرادة والطلب أو التوحيد العملي هو توحيد العبادة ، ولهذا لا فرق بين من يقول التوحيد نوعان توحيداً في المعرفة والإثبات ، وتوحيداً في الإرادة والطلب ، وبين من يقول التوحيد ثلاثة أنواع توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد الألوهية لماذا ؛ لأن من قال التوحيد نوعان أدخل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات في التوحيد العلمي أو توحيد المعرفة والإثبات ؛ لأن المطلوب في كل منهما هو معرفةٌ وأثباتٌ وعلمٌ ، والقسم الثاني : التوحيد العملي وهو توحيد العبادة ، ويقال له توحيد القصد ويقال له توحيد الإرادة ويقال له توحيد الألوهية إلى غير ذلك من الأسماء وسيأتي الكلام عليها عند المصنف - رحمه الله -

إثبات ذات الرب جل وعلا أسمائه الحسنی صفاته العلا

أي وإثبات أسمائه الحسنی وثبات صفاته العلا ، وتقدير هذا الإجمال يأتي في الأبيات القادمة يعني أجمل هذا التوحيد في هذا البيت وجمعه ، جمع هذا النوع وهو توحيد المعرفة والإثبات في هذا البيت الواحد

إثبات ذات الرب جل وعلا أسمائه الحسنی صفاته العلا

وما سيأتي إلى نهاية الفصل كله شرح لهذه الجملة وتفصيل لها .

قال رحمه الله :

وأنه الرب الجليل الأكبر الخالق البارئ والمصور
باري البرايا منشى الخلائق مبدعهم بلا مثال سابق

الشرح :

قال رحمه الله تعالى (وأنه) أي الله يدخل في توحيد الإثبات أو توحيد المعرفة أو التوحيد العلمي ؛ الإيمان بأن الله - سبحانه وتعالى - (الرب) ، والرب هو الخالق الرازق المتصرف الملك لهذا الكون ، فالإيمان بأنه الرب الإيمان بهذا الاسم والإيمان بوصف الله الذي يدل عليه اسمه الرب وهو الربوبية ، فالربوبية صفة الله ، وتشمل الخلق والرزق والتصرف والملك والتدبير ، فمن توحيد المعرفة والإثبات إيماننا بأنه الرب - سبحانه وتعالى - (الجليل) أي الذي له صفات الجلال كما قال تعالى { ذو الجلال } الإيمان بأنه الجليل أي الذي له الجلال في صفاته ، قال تعالى { ذو الجلال والإكرام } يقول أهل العلم : إلى هذين الاسمين [ذو الجلال والإكرام] ترجع الصفات كلها ، الذاتية ترجع إلى الجلال ، والفعلية ترجع إلى الإكرام فجميع الصفات ترجع إلى ذلك ، فقلوه (الجليل) ذو الجلال وهذا يشمل كل صفات الله - سبحانه وتعالى - الذاتية ، فهو - سبحانه وتعالى - له الجلال في صفاته ، ليس له إلا صفات العظمة والكمال - سبحانه وتعالى - وصفاته الفعلية كلها إكرام ، وكلها فضل ومنّ - سبحانه وتعالى - ، (الجليل الأكبر) أي من كل شيء ، كما يقول المصلي في صلاته مكرراً ذلك مرات [الله أكبر] أي من كل شيء ، قال تعالى في القرآن { فكبّره تكبيرا } فهو - سبحانه وتعالى - الأكبر من كل شيء ، ومعنى قول المصلي والذاكر لله - جل وعلا - الله أكبر أي من كل شيء { قل أي شيء أكبر شهادة قل الله } ، وجاء في الحديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لعدي ما يفرك ؟ - أي من الإسلام - أيفرك أن يقال لا إله إلا الله وهل من إله غير الله ؟ ثم قال له : ما يفرك أيفرك أن يقال الله أكبر وهل شيء أكبر من الله [فقلوه - عليه الصلاة والسلام -] وهل شيء أكبر من الله [هذا فيه تفسير لمعنى الله أكبر أي من كل شيء فمن توحيد المعرفة والإثبات الإيمان بأنه - سبحانه وتعالى - أكبر من كل شيء - جل وعلا - ، قال (الخالق البارئ والمصور) ذكر هنا ثلاثة أسماء حسنى لله - جل وعلا - جاءت مجمعة في آخر آية من سورة الحشر في قوله تعالى { هو الله الخالق البارئ المصور } فذكر هذه الأسماء الحسنى الثلاث الخالق البارئ المصور ، الخالق أي للمخلوقات فهو - سبحانه وتعالى - الموجد لها قدرها وخلقها وأوجدتها كما شاء ، والبارئ المصور هما كما يقول العلامة ابن القيم - رحمه الله - في كتبه شفاء

العليل [كالتفصيل لاسمه الخالق] ، لأن معنى البارئ أي الموجد للشيء من العدم ، (باري البرية) أي موجدها من العدم ، وخالقها بعد أن لم تكن ، { هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً } والمصور هو الذي يوجد هذه الكائنات ويخلقها على الصورة التي أراد { وصوركم فأحسن صوركم } فيوجدتها يخلقها على الصورة التي أراد ، { ولقد خلقناكم ثم صورناكم } فالتصوير هو إيجادها للمخلوقات على الصورة التي أراد - سبحانه وتعالى - ، فإذا البارئ المصور هما كالتفصيل للخالق ، ثم هي في الترتيب (الخالق البارئ المصور) كما في القرآن وكم رتبها الناظم - رحمه الله - وأيضاً فيه مراعاة لوجود المخلوقات ؛ لأن أولاً الخلق والتقدير ، ثم البري وهو الإيجاد من العدم ، ثم فعلها على الصورة التي أرادها - سبحانه وتعالى - ، قال في البيت الذي بعده :

باري البرايا منشئ الخلائق مبدعهم بلا مثال سابق

هذا فيه توضيحي لمعنى الخالق البارئ المصور ، قال (باري البرايا) أي موجد البرايا ومبدعهم وخالقهم بعد أن لم يكونوا ، أوجدتهم من العدم (باري البرايا منشئ الخلائق) أي موجد الخلائق ؛ فهو الذي برى البرية : أي الخليفة ، وأنشأ الخلائق أي أوجدتهم - سبحانه وتعالى - من العدم (مبدعهم) والمبدع هو الموجد للشيء بلا مثال سابق { بديع السماوات والأرض } ، المبدع موجد الشيء بلا مثال سابق ، ولهذا لما قال مبدعهم ذكر ما يوضح ذلك وهو قوله (بلا مثال سابق) مبدعهم أي موجدهم تبارك وتعالى بلا مثال سابق .

قال رحمه الله :

الأول المبدي بلا ابتداء والآخر الباقي بلا انتهاء

الشرح :

ثم ذكر - رحمه الله تعالى - في هذا البيت أن الله الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ، الأول والآخر كما في قوله - تبارك وتعالى - في سورة الحديد { هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم } وتفسير ذلك جاء في حديث النبي - عليه الصلاة والسلام - الذي كان يقوله - عليه الصلاة والسلام - إذا أوى إلى فراشه لينام كان يقول - عليه الصلاة والسلام - [اللهم رب السماوات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء ومليكه فائق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر

كل دليّة أنت آخذ بناصيتها ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين وأغنني من الفقر [ففسر- النبي -عليه الصلاة والسلام- في هذا الحديث وهذا الدعاء الأول الذي لا شيء قبله ، والآخر أي الذي لا شيء بعده ولهذا قال الناظم هنا (الأول بلا ابتداء) أي أنه -سبحانه وتعالى- أولي ليس لأوليته ابتداء ، وآخر ليس لآخريته- تبارك وتعالى- انتهاء ، فهو أول -تبارك وتعالى- بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء ، فالأول بلا ابتداء هذا يتعلق في الأزل ، والآخر بلا انتهاء هذا يتعلق فيما لم يزل ، فهو -سبحانه وتعالى- أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء ، وذكر أيضاً أنه المبدي في البيت الأول قال (الأول المبدي بلا ابتداء) المبدي أي الذي أوجد هذه المخلوقات { يبدئ ويعيد } يبدئ هذه المخلوقات أوجدها بلا مثال سابق ، وبعد فئتها يعيدها -تبارك وتعالى- مرة ثانية فهو -سبحانه وتعالى- المبدئ والمعيد ، المبدئ الذي يبدأ الخلق ، والمعيد الذي يعيدهم ، المبدئ الذي يبدأ الخلق ويوجد الخلق بلا مثال سابق ، والمعيد هو الذي يعيد الخلق مرة ثانية ، قال : (والآخر الباقي) الباقي هذا تفسير للآخر وتوضيح لمعناه ، وفي القرآن يقول الله -سبحانه وتعالى- { كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام }

قال رحمه الله :

الأحد الفرد القدير الأزلي الصمد البرّ المهيمن العلي
علو قهرٍ وعلو شان جل عن الأضداد والأعوان
كذا له العلو والفوقية على عباده بلا كيفية

الشرح :

ثم ذكر -رحمه الله تبارك وتعالى- جملة من الأسماء الحسنى لله -تبارك وتعالى- وأيضاً ما يخبر عن الرب -تبارك وتعالى- به مما تدل عليه أسماؤه وصفاته قال :

(الأحد الفرد) الأحد اسم من أسماء الله -تبارك وتعالى- الحسنى ، والفرد يخبر عن الله -تبارك وتعالى- به وهو بمعنى الأحد ، فالأحد الفرد أي المتوحد -تبارك وتعالى- بصفات الجلال والكمال والعظمة ، المتفرد بخلق هذه المخلوقات وإيجادها من العدم لا شريك له ، الواحد في أسمائه وصفاته -تبارك وتعالى- لا شبيه له ولا مثيل ، { قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد } فالأحد أي الذي لا شبيه

له ولا نظير ولا شريك له في ألوهيته ولا في ربوبيته ، - سبحانه وتعالى - ولا في شيء من أسمائه وصفاته ، (القدير) الذي له القدرة الكاملة التامة على كل شيء ، كما قال - سبحانه وتعالى - { إن الله على كل شيء قدير } فالقدير الذي له القدرة الشاملة فهو - تبارك وتعالى - قدير على كل شيء ، فنؤمن بأحدثه ونؤمن بقدرته - تبارك وتعالى - الشاملة للذي يدل عليها اسمه - تبارك وتعالى - القدير ، ونؤمن بأنه - تبارك وتعالى - الأزلي : أي بذاته - تبارك وتعالى - وبصفاته بلا ابتداء ، فهو - سبحانه وتعالى - لم يزل ولا يزال كاملاً بذاته وأسمائه وصفاته - جل وعلا - ، أول بلا ابتداء آخر بلا انتهاء (الصمد) اسم من أسمائه الحسنی وهو يدل على صمديته - جل وعلا - ، والصمد هذا من الأسماء الحسنی الدالة على معانٍ كثيرة ؛ لأن من الأسماء الحسنی ما هو دال على معنى مفرد ؛ مثل العليم العلم ، السميع السمع ، البصير البصر - ، ومنها ما هو دال على معانٍ عديدة لا على معنى مفرد ؛ كالسيد والصمد والحميد والمجيد ونحو هذه الأسماء ، فالصمد يدل على صمدية الله - تبارك وتعالى - وفي ذلك يقول ابن عباس في معنى الصمد قال [هو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، الشریف الذي كمل في شرفه العظيم الذي كمل في عظمته الحليم الذي كمل في حلمه العليم الذي كمل في علمه] إلخ كلامه - رضي الله عنه - ، فالصمد يدل على كمال الله - تبارك وتعالى - في أسمائه وصفاته ، كماله في علمه في قدرته في سمعه في بصره في جميع صفاته - سبحانه وتعالى - ، والعرب كانت تطلق على إشرافها وذوي السيادة فيها باسم الصمد ، والله - عز وجل - الصمد الذي كمل في صفاته ، والصمد الذي تصمد إليه الخلائق بمعنى ترجع إليه - سبحانه وتعالى - وأيضاً يدل هذا الاسم على غنى الله عن المخلوقات ، ويدل على افتقار المخلوقات كلها إلى الله - سبحانه وتعالى - في كل حاجاتها (البر) وهذا اسم من أسماء الله الحسنی وقد جاء في القرآن { إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم } والبر هذا الاسم يدل على ساعة بره : أي إحسانه وفضله وعظيم إنعامه - جل وعلا - ، البر العام للمخلوقات كلها بالإيجاد والإمداد ونحو ذلك من العطايا والمنن ، وأيضاً البر الخاص بأوليائه وأصفيائه بأن هداهم للإيمان ووفقهم لهذا الدين وجعلهم من أهل طاعته وعبادته ثم يكرمهم يوم القيامة بدخول جنته (المهيمن) وهذا اسم جاء في القرآن في آية الحشر - قال تعالى { هو الله الذي لا اله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن } والمهيمن هو الرقيب المطلع على العباد الشهيد عليهم الذي أحاط بهم علماً - سبحانه وتعالى - وأحصى كل شيء عدداً ، ولا تخفى عليه - تبارك وتعالى - خافية في الأرض ولا في السماء (العلي) وهذا الاسم ثابت في

القران { وهو العلي العظيم } وهو من أسماء الله - تبارك وتعالى - الحسنى وهو يدل على علو الله - تبارك وتعالى - يقول الناظم - رحمه الله - مبيناً معنى العلي وما يدل عليه :

علو قهر وعلو الشأن جل عن الأضداد والأعوان

كذا له العلو والفوقية على عباده بلا كيفية

فهذان البيتان شرح فيهما اسم الله العلي ، وأن هذا الاسم يدل على ثبوت معاني العلو الثلاثة لله - تبارك وتعالى - ، علو القدر وعلو القهر وعلو الذات ، فهذه المعاني الثلاثة للعلو كلها ثابتة لله - سبحانه وتعالى - ويدل عليها اسمه العلي والأعلى والمتعال ، هذه كلها تدل على علو الله عليها ذاتاً وقدرًا وقهرًا ، ولهذا قال - رحمه الله - في تبيينه لهذا الاسم ، (علو قهر) هذا النوع الأول كما قال عز وجل { وهو القاهر فوق عباده } (وعلو الشأن) أي علو القدر والمكانة ويدل عليه قول الله عز وجل { وما قدروا الله حق قدره } وقوله تعالى { ما لكم لا ترجون لله وقاراً } فهو له علو القهر هذا الأول ، وله علو الشأن هذا الثاني (جل عن الأضداد والأعوان) وهذا تنبيه لطيف جداً في توضيح علو الشأن ؛ لأن من يجعل لله ضدًا وشريكًا وعوينًا هذا ما قدر الله حق قدره لم يثبت علو الله ، لهذا قال الله { وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون } فالذي يثبت مع الله الشركاء والأنداد هذا ما قدر الله حق قدره ، نظير هذه قوله تعالى { يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره } أي الذي يجعل مع الله الشركاء والأنداد والأعوان والنظراء هذا ما اثبت الله علو القدر ، كما قال تعالى " { ما قدروا الله حق قدره } ثم ذكر النوع الثالث وهو قوله (كذا له العلو والفوقية على عباده بلا كيفية) وهذا علو الذات على المخلوقات ، وانه - سبحانه وتعالى - علي بذاته على مخلوقاته (الفوقية) بمعنى العلو ، فهو - سبحانه وتعالى - له العلو والفوقية على عباده ، أي أنه سبحانه وتعالى بذاته علي على مخلوقاته ، مستوٍ على عرشه بائن من خلقه - جل وعلا - ، هذا من معاني العلو ، اسم الله العلي يثبت منه معاني العلو الثلاثة لله ، علو القهر وعلو الشأن وعلو الذات ، وعلو الذات بينه في هذا البيت الأخير (كذا له العلو والفوقية على عباده بلا كيفية) (بلا كيفية) وهذا يقال في جميع الصفات ف العلو وغيره تثبت لله كما جاءت ، وتربها وردت ، وقوله (بلا كيفية) أي نعلمها - هذا هو المراد - أما علو الله - سبحانه - له كيفية يعلمها هو - سبحانه - ، كل صفاته لها كيفية يعلمها هو - سبحانه - فلا تنفى الكيفية نفى وجود ؛ إنما

تنفى نفى علمٍ منها ، فنحن لا نعلم كيفية الصفات ولهذا قول السلف [بلا كيف] أي بلا كيف نعلمه ، ونفى كيف نفى العلم بالكيفية وليس نفياً لوجود الكيفية ؛ لان ما لا كيف له عدم ، لهذا الإمام مالك قال [كيف مجهول] ولم يقل معدوم ، وفرق بين كيف مجهول وكيف معلوم ، صفات الله لها كيفية وما لا كيفية له عدم لكن الذي ننفيه نحن الذي ننفيه علمنا بالكيفية لماذا ننفي علمنا بالكيفي ؟ ؛ لانا اخبرنا بالصفات ولم نخبر بكيفيتها ، ولهذا إثبات أهل السنة والجماعة للصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف ، إثبات وجود نحن ثبت وجود الصفات اليد السمع العلو البصر- النزول إلى غير ذلك من صفات الله ، ثبت وجودها أما كيفيتها لا نعلمها ، ننفي العلم بالكيفية لأننا اخبرنا بالصفات ولم نخبر بكيفيتها .

قال رحمه الله :

ومع ذا مطلع إليهم بعلمه مهمين عليهم
وذكره للقرب والمعية لم ينف للعلو والفوقية
فإنه العلي في دنوه وهو القريب جل في علوه

الشرح :

لما ذكر - رحمه الله تعالى - إثبات علو الله بذاته فوق مخلوقاته - جل وعز - وأنه عليّ على خلقه ، وأنه فوق المخلوقات مستو على العرش - جل وعلا - استواء يليق بجلاله ، لما ذكر ذلك قال (ومع ذا) أي مع الإيمان بعلو الله وفوقيته - سبحانه وتعالى - (مطلع إليهم بعلمه مهمين عليهم) مع علوه - تبارك وتعالى - فهو مطلع على العباد ، كما جمع - سبحانه وتعالى - بين علوه وإطلاعه وعلمه بالعباد ، وأنه معهم بعلمه ، جمع بين ذلك في آيات كثيرة ، بل تابعوا آيات الاستواء الواردة في القرآن وهي في سبعة مواضع - أظنها والله أعلم - كلها أو جلها فيها الجمع بين الاستواء وإطلاع الله على العباد ، في سورة الرعد { الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش } وبعده بآيات قال { الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد } وفي سورة السجدة قال { الله الذي خلق السماوات والأرض ما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش } ثم بعدها بآيات قال { ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم } : في سورة طه { الرحمن على العرش استوى } ثم قال { يعلم ما في السماوات وما الأرض وما بينهما وما تحت الثرى } فذكر الاستواء وذكر الإطلاع ، في سورة الحديد قال - سبحانه وتعالى - { هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها

وهو معكم} أي بعلمه وإطلاعه - سبحانه وتعالى - ، فنحن نؤمن بأن الله فوق مخلوقاته ومستو على عرشه استواء يليق بحلاله ومع ذلك نؤمن بأنه مطلعٌ عليهم وهذا معنى قول الناظم :

ومع ذا مطلع إليهم بعلمه مهيمن عليهم

فهو مع علوه مطلع إليهم : أي إلى العباد يراهم ، لا تخفى عليه منهم خافية ، يرى - جل وعلا - من فوق سبع سنوات دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويرى جريان الدم في عروقها وكل جزء من أجزائها ، لا يخفى عليه - تبارك وتعالى - خافية في الأرض ولا في السماء (مطلع إليهم) أي يراهم - تبارك وتعالى - أجمعين ، كل المخلوقات لا يخفى عليه منهم شيء ، (بعلمه مهيمن عليهم) مطلع عليهم بعلمه ، مطلع عليهم برؤيته - جل وعلا - يراهم ، أحاط علمه - تبارك وتعالى - بهم { أحاط بكل شيء علما وأحصى - كل شيء عددا } (مهيمن عليهم) وقد مر معنا اسم الله - تبارك وتعالى - المهيمن ومعناه ، قال (وذكره) أي - سبحانه وتعالى - (للقرب والمعية لم ينف للعلو والفوقية) وهذا فيه أن علو الله - سبحانه وتعالى - لا ينافي قربه ومعيته ، لا منافاة لأن هذا حق وهذا حق ، هذا ثابت وذاك ثابت ، العلو والفوقية ثابت في النصوص ، والقرب والمعية أيضاً ثابتة ، المعية سواء العامة التي هي معية الإطلاع والعلم كما هو مبين في البيت الأول ، أو المعية الخاصة التي هي تأييد الحفظ التوفيق { لا تحزن إن الله معنا } { إنني معكم اسمع وارى } هذه معية خاصة { إن الله مع الذين اتقوا الذين هم محسنون } فهذه المعية العامة والخاصة لا تنافي العلو ، وأيضاً القرب ؛ قرب من أوليائه وأصفيائه ، قرب من العابدين وقربه من الداعين { وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان } وهذا لا ينافي علو الله - سبحانه وتعالى - ولا فوقيته لأن هذا حق وهذا حق . قال :

فإنه العلي في دنوه وهو القريب جل علوه

جاء عن بعض السلف أنه قال في وصف الله قال : [العلي في دنوه الداني في علوه] أي علو الله - سبحانه وتعالى - لا ينافي قربه ودنوه من عباده كيف شاء - سبحانه وتعالى - فكل ما ثبت في النصوص فهو حق نؤمن به كما جاء ونثبت كما ورد .

قال رحمه الله :

حي وقيومٌ فلا ينامٌ وجل أن يشبهه الأنام

لا تبلغ الأوهام كنه ذاته ولا يكيف الحجا صفاته

الشرح :

ثم ذكر هنا بعض أسماء الله وصفاته (حي وقيوم) كما قال الله في أعظم آية في القرآن {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} الحي : الذي له الحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم ، ولا يحلقها فناء الحياة التي لها كمال الصفات والأسماء ، الله - عز وجل - حيُّ له الحياة الكاملة - سبحانه وتعالى - وقيوم : أي قائم - سبحانه - بنفسه ومقيم لخلقه ، لهذا قال أهل العلم : أن اسم الله القيوم يدل على كمال الغنى وكمال القدرة ، كمال الغنى لأنه قائم بنفسه ، والقدرة لأنه قائم بخلقه {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت} لهذا قال أهل العلم أن صفات الله ترجع إلى هذين الاسمين إلى الحي ترجع الصفات الذاتية ، والقيوم ترجع الصفات الفعلية (حي وقيوم فلا ينام) كما قال - تعالى - {الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم} فهو - تبارك وتعالى - حيُّ قيوم لا ينام ؛ أي منزّه عن النوم قال - صلى الله عليه وسلم - [إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام] (وجل أن يشبهه الأنام) (جلّ) أي تنزه وتقدس - سبحانه وتعالى - أن يشبهه الأنام : أي أن يشبهه احد من المخلوقات فهو منزّه عن ذلك ، لا يشبه احد من خلقه ولا يشبهه احدٌ من خلقه ، فالتشبيه باطل بنوعيه ، والتشبيه نوعان : تشبيهٌ للمخلوق بالخالق ، وتشبيهٌ للخالق بالمخلوق وكل من التشبيهين باطل (وجل يشبهه الأنام) أي لا يشبهه - تبارك وتعالى - احد من خلقه فهو منزّه - جل وعلا - عن الشبيه والنظير - جل وعلا - (وجلّ أن يشبهه الأنام) قال تعالى {ليس كمثله شيء} وقال تعالى {هل تعلم له سمياً} وقال تعالى {فلا تضربوا الله الأمثال} وقال تعالى {لم يكن له كفواً أحد} (لا تبلغ الأوهام كنه ذاته) هذا أمر ينبه عليه - رحمه الله - فيما يتعلق بأوصاف الله - عز وجل - وصفاته ، يقول الأوهام : أي الإفهام والعقول لا تبلغ : لا يمكن أن تصل إلى معرفة كنه الذات ، لا يمكن أن تصل إلى ذلك ، فالعقول قاصرة وكاله وعاجزة أن تبلغ كنه ذاته ، وإذا كانت العقول عاجزة عن أن تبلغ كنه كثير من المخلوقات ؛ فكيف بخالقها ومبدعها - سبحانه وتعالى - !! ، رأى عبد الرحمن بن مهدي كما أورد ذلك الذهبي في السير [غلاماً كان يخوض في كنه الصفات والكيفيات فقال له : يا غلام دعنا ننظر في كيفية بعض المخلوقات ؛ فان بلغت عقولنا انتقلنا إلى الكلام في كيفية خالقها ، وان عاجزنا أو عاجزت عقولنا فنحن عن كيفية صفات خالقها عاجز ؟ ووافق قال : أخبرني عن ملك من الملائكة له ستمائة جناح أين هذه الأجنحة ؟ ثم بهر قال أهون عليك ، أخبرني عن ملك من الملائكة له ثلاث أجنحة {أولي أجنحة مثني وثلاث ورباع} له ثلاث اجنحة جناح عن يمينه

، وجناح عن يساره ، الثالث هذا أين وكيف يطير ؟ فقال الغلام : انتهيت [عجز عن أن يعرف كيفية مخلوق من مخلوقات الله - سبحانه وتعالى - فكيف به يتناول ويقحم عقله القاصر في محاولة معرفة كيفية الخالق ، ولهذا قال : (لا تبلغ الأوهام كنه ذاته) ، وأنا أقول في هذا الباب يكفيننا قولنا [الله اكبر] هذه تكفي في هذا الباب [الله اكبر] من كل شيء ، ومن ذالكم اكبر من كل شيء تقدره من الكمال في عقلك وفي ذهنك اكبر من ذلك - سبحانه وتعالى - ، مهما قدرت من الجلال والكمال والعظمة في الصفات وقدرته بذهنك وزعمت انه وصفٌ لله ، الله اكبر من ذلك اكبر من كل شيء

(ولا يكفي الحجا) أي العقل (صفاته) العقل لا يمكن أن يعرف كيفية صفات الله - تبارك وتعالى - ولهذا الإمام مالك لما قال له الرجل : { الرحمن على العرش استوى } كيف استوى ؟ قال : [الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول] هكذا قال بأكثر الروايات عنه ، هذا الأثر روي عنه بقراءة عشرة من تلاميذه ، أكثر الروايات عنه بهذا اللفظ ، [الاستواء غير مجهول] أي المعنى ، غير مجهول المعنى ؛ لا نجعل معناه ، معناه علا وارتفع ، واضح المعنى ، [والكيف غير معقول] أي لا يمكن للعقول أن تبلغه ، وهذا معنى قول الناظم هنا (ولا يكيف الحجا صفاته) الحجا التي هي العقول لا تعرف ولا يمكن أن تبلغ معرفة كيفية صفات الرب - تبارك وتعالى - .

والله تعالى اعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى اله وأصحابه أجمعين.